الامام محمد عبده

يحدثنا عن شيخه الصوفى

فى حياة كل عظيم روح من التصوف وشعاع من هداه، ظاهرة أصبحت من معالم التاريخ ومن آياته، وغدت سطوراً فى مطلع الدراسات العالمية. التى تستهدف الحديث عن صناع التاريخ وصناع الحياة.

حتى الذين ظُن بهم، أو قيل عنهم أنهم من خصوم المنهج الصوفى عاشوا حياتهم صوفية، وفتح لهم التصوف أبواب الحياة الصاعدة.

والإمام محمد عبده: أستاذ هذا الجيل الذى يحمل القلم. ويحدثنا هنا عن حياته الأولى؛ وما فيها من جمود وضيق وجهل، ثم يسر الله له رجلا صوفيا أخذ بيده إلى النور والمعرفة فإذ بالدنيا تشرق، والخير يتدفق، والأفق يتسع، يقول الإمام:

« حملنى أبى إلى طنطا وكانت سنى أربعة عشر عاما لأدرس العلم الأزهرى وبدأت بتلقى شرح الكفراوى على الأجرومية فى المسجد الأحمدى وقضيت سنة ونصف سنة لا أفهم شيئا ».

وعاد الصبى إلى قريته بالبحيرة يائسا من العلم والتعليم، ليشتغل - بالفلاحة - بالحقل، وتزوج واعتزم الحياة بين الحقول. وبعد زواجه بأربعين يوما جاء والده إليه وأمره بأن يعود إلى طنطا ليواصل تعليمه فأبى، ولكن والده حمله إليها قسراً. وألم بقلب الصبى حزن أليم غليظ، كيف يعود إلى دروس لا يفقه منها شيئا، وإلى مجلس بليد لا جدوى فيه.

وهرب الصبى من جديد، هرب إلى إلى قرية خال أبيه، إلى الشيخ درويش وكان الشيخ درويش من أبناء التصوف، ومن رجال الطرق الصوفية

وأدرك الشيخ حالة الفتى، ولمس ضيق نفسه بما يلقى إليه من علم أشبه بالأحاجى والرموز.

يقول محمد عبده:

« جاءنى هذا الشيخ وبيده كتاب يحتوى على رسائل كتبها السيد محمد المدنى أحد أئمة الصوفية إلى بعض مريديه بالأطراف بخط مغربى دقيق وسألنى أن اقرأ له فيها شيئا لضعف

بصره . فدفعت طلبه بشدة . ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ، ونفرت منه أشد النفور ، ولما وضع الكتاب بين يدى رميته إلى بعيد ، لكن الشيخ تبسم وتجلى فى ألطف مظاهر الحلم . ولم يزل بى حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر ، فاندفع يفسر لى معانى ماقرأت بعبارة واضحة ، تغالب أعراضى فتغلبه ، وتسبق إلى نفسى . وبعد قليل جاء الشبان يدعونى إلى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة فى نهر قريب من القرية . فرميت الكتاب وانصرفت إليهم . وبعد العصر جاءنى الشيخ بكتابه ، وألح على فى قراءة شىء منه فقرأت ، وفسر ، ثم تركته إلى اللعب . وفعل فى اليوم الثانى كافعل فى الأول . أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه . وهو يشرح لى معانى ما أقرأ ، نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها . فقال لى: إنه فى حاجة إلى الذهاب إلى المزرعة ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معى فتركه ومضيت أقرأه ، وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها إلى أن جاء وقت الظهر وعصيت فى ذلك اليوم كله رغبة فى اللعب وهو ينازعنى إلى البطالة . وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه ، فأبان معناه على عادته ، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندى من الرغبة فى المطالعة والميل إلى الفهم.

« ولم يأت على اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شىء إلى هو ما كنت أحبه من لعب ولهو ونخفخة وزهو وعاد أحب شىء إلى هو ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم » .

وهكذا تمكن الشيخ الصوفى من أن يحل بكياسة وسعة صدر عقدة فى نفس الفتى كانت حياته كلها ترزح تحتها

إن هذا الدرس اللبق الذى ألقاه عليه الشيخ درويش حبب إليه العلم فعاد إلى طنطا ، وفهم المرة الأولى ما يقال ثم انتقل إلى الأزهر وبدأ حياته الجديدة مجاوراً فيه .

ولكن تأثير هذه اللمحات الصوفية التى تلقاها من شيخه حملته على أن ينفر من المجتمع وأن ينطوى فى داخل نفسه يغرق فى تأملاته حتى أنه كان يستغفر الله إذا كلم شخصا لغير ضرورة .

إلا أن الشيخ درويش ، ما كان يفهم التصوف على هذا النحو ، وإنما كان التصوف عنده علماً وحركة وإنتاجاً ، والعلم عنده لا يقتصر على هذه الأوراد وهذه اللحظات فى حلقات الذكر ، وهذه المكاشفات والدرجات ، وإنما كان شيئا أهم ، وأعم .

ولنا أن نتصور قيمة المدرسة الفكرية الصوفية الكبرى التى كانت

موجودة فى العالم الإسلامى ، إذا علمنا أنه كلما عاد محمد عبده من الأزهر فى إجازته كان الشيخ درويش يسأله عما درس ، وبعد أن يسمع منه طرفاً من هذه البرامج العاجزة يقول له : هل درست المنطق؟ هل درست الحساب ؟ هل درست الهندسة ؟ ألخ . فيجيبه الطالب الأزهرى : بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة فى الأزهر فيرد عليه فى عزم وإصرار :

— طالب العلم لا يعجز عن تحصيله فى أى مكان . . يروى محمد عبده : « فكنت إذا رجعت الى القاهرة ألتمس هذه العلوم عند من يعرفها فتارة كنت أخطىء فى الطلب وأخرى أصيب . إلى أن جاء المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر أواخر سنة ١٢٨٦ هـ وقد صاحبته، وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية والكلامية »

وقد أثارت دروس الأفغانى كثيراً من الجدل والشكوك حولها ففزع محمد عبده إلى الشيخ درويش يستنجد برأيه السديد فيجيبه كما لو كان أرسطو يتكلم . . يقول له :

« إن الله هو العليم الحكيم ولا علم يفوق علمه وحكمته، وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل . وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه، وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة فلا شىء من العلم بممقوت عند الله ، ولا شىء من الجهل بمحمود لديه ، إلا ما يسميه بعض الناس علماً ، وليس فى الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما ، إذا قصد من تحصيلهما الإضرار بالناس » فليتأمل رجال العلم والتربية .

ونختم قصة الشيخ بآخر ما ذكره عنه مريده : « قال لى عند ما رجعت الى محلة نصر فى سنة ١٢٨٨ هـ إلى متى هذه العزلة ، وما الفائدة من العلم وتحصيله اذا لم يكن لك نور تهتدى به وتهدى به الناس؟ ان المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك، وأن من لم ينفع بما تعلم فقد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس المعرفة . فعليك أن تخالط الناس وتعظهم وترشدهم الى الطريقة القويمة والسنة الصالحة » .

فذكرت له اشمئزازى من الناس ، فقال لى : هذا من أقوى الدواعى إلى ما حثثتك عليه ، فلو كانوا جميعا هداة مهديين لما كانوا فى حاجة إليك، وما زال بى حتى وجد عندى شىء من الألفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم . وفى شوال من تلك السنة . ودعنى وبكى بكاء شديدا ومات فى استراليا رحمه الله .